

القصص

قصة مصرية

دموع بريئة

للاستاذ محمود الخفيف

أرى فيها خواطرقى كبير القلب راجع العقل .
غاب عني شهراً فاشفقت أن يكون قد مسه الضر ، وأردت أن
أذهب إليه ، ولكن الخادم أحضر إلى كتاباً تبينت خطه على
غلافه ، ففضضته في شغف فاذا به يخبرني أنه سيكون عندي في المساء ،
ومرت الساعات ثقلاً حتى كانت الثامنة ، فاذا هو يطرق الباب ،
ثم يفتحه في هدوء . ودخل على شاحبا مكدوداً واجماً مهموماً .
ومد إلى يده وكأنه قرأ في وجهي إشفاقي وتلطفي ، فابتسم ابتسامة
قصيرة ، ثم جلس وقد اتكأ بمرقته على حافة المقعد ، وأسند رأسه
إلى قبضة يده ، وشملته كآبة مرعبة دق لها قلبي ، فانا أعرفه نائر
العواطف واسع الرحمة يستوقف بصره بكاءً بأثس فتدمع مقلناه ،
ويطرق أذنه أنين ملتحاق فيملك عليه مشاعره ، وكثيراً ما أظهرت
له إشفاقي فكان يضحك مني قائلاً : لاحيلة في ذلك فلك جيلته ،
ولقد كان يتهم نفسه بالطفولة ، ولكنه كان يعود فيفتخر بهذه
الطفولة التي تملأ قلبه رحمة وحناناً .
وأطرق قليلاً ، ثم رفع رأسه وقال وهو يضحك ضحكة غريبة ،
تعب عن الآسى والالام :

— هو شهر ، ولكنه قرن في حوادثه —

وتالله لقد ألهب شوق بتلك العبارة فاصخت بسمعي إليه ،
وأقبلت بكليتي عليه ، وفهم هو من نظراتي أنني أستعجله ، فhez رأسه
هزة عصبية وقال :

الله ما أغرب هذا المسرح الهائل ، مسرح الحياة الذي يمجج
بالناس في غير نظام ، وكل يلعب دوره حتى يسدل الستار عليه
فاذا هو في طي القنار وفي أغوار الأبدية . هذا ضاحك مستبشر ،
وهذا فرح نخور . وهذا بأثس محزون ، وهذا حائر مشدود ، وهذا
ضعيف مستسلم ، وهذا مغتر متطاول ، وهذا . . . وأخيراً يتساوى
الجميع فيساقون في سكوت كل إلى حفرته .

قلت أمرك عجب أيها الصديق ، وهل هذا ما يحزنك هذا
الحزن ؟ لكأني بك قد اجتمعت فيك كل هذه الصور . ماذا
أحزنك وعهدى بك مرحاً خلى البال ؟

وتنهذ الفتى تنهداً عميقاً وقال :

— على هذا المسرح المرعب أو قل في زواياه التي لا تراها

غرفته في الثامنة عشرة ، طويل القائمة في غير إفراط ،
تحيل الجسم في غير هزال ، مبيب الطلعة في غير تأني ، حلو الحديث
في غير تكلف ، ولست أذكر وقد مضى على تعارفنا نحو ستة
أعوام ما الذي جذبني إليه حينأرايته لأول مرة ، حتى لقد امتزجت
روحي بروحه ، أهو هدوؤه ورزاقته أم نشاطه وهيبته ؟ وهل ما
أتذكره الآن هو أني رأيت فاحبته ، ولشد ما أبهج نفسي أن
رأيت يحس نحوي ما أحس نحوه ، فما هي إلا أيام حتى توثقت
عري المودة بيننا ، واستحكم الوفاق بين قلوبنا ، وصار كلانا يأنس
بصاحبه ويهش للقاءه ، ويحرص على رضائه .

ولما عاشرتة وتبينت خلاله ، أعجبتني منه أدبه الجم ، ووقاره
العادل ، وقلبه الرحيم ، وأكبرت منه نظراته الهادئة ونفسه المتوثبة ،
وعواطفه النائرة ، وشبابه المرح ، وروح الجذابة .

وتبينت فيه شاعراً يقدر الجمال ويعشق الطبيعة في خيال
خصب ، وذهن متوقد ، وحس دقيق ، كما تبينت فيه على حدائته
فيلسوفاً بعيد النظر ، دقيق الملاحظة ، حلو الفكاهة ، عذب الروح ،
ورأيت مشغولاً بالحياة مقبلاً عليها قائماً بحظه منها ، راضياً عن
نفسه ، غير ساخط على أحد .

ولقد جعلني منذ أن تعارفنا موضع سره ، يحدثنى في غير تحفظ
ويجد عزاء طيباً في أن يبينني لواضع نفسه وخطرات حسه ، كما يجد
هنا سائغاً في أن أشاطره مسراته وأسباب سعادته .

وكان حديثه تارة حزيناً يستدر الدموع ، وتارة بهيجاً يملأ
جوانب النفس سروراً وغبطة ، وكان يقص على مشاهداته في الحياة ،
غير أنه كان يشفعها بأرائه أو يمزجها بخواطره فيكسبها بذلك قوة
يحرك القلب وتستثير العواطف . وكنت أحرص على أحاديثه إذ

عشرة تكسو محياها سمرة خفيفة، وهي فتاة ضاحكة العينين مرحلة جريئة النظرات، سريعة الحركة، خفيفة الروح الى حد عظيم .
أما وسطاها فلم تظهر طول ذلك اليوم - ولست أدري وأيم الله لم ضايقتني ذلك وكل ما أذكره هو أنني أحسست بانقباض وضيق لعدم ظهورها، على أنني ما لبثت أن ضحككت، بل وسخرت من نفسي ومضيت الى كتي ونسيت من أمرها ومن أمرهن كل شيء .

وفي صبيحة اليوم التالي نزلت الى عملي فدينت وجهها من خلال زجاج النافذة، جميلة رائعة الجمال، دجاء المحاجر، بيضاء الوجه، دقيقة الأنف، حلوة اللقطة، ناهدة الصدر، وفي ظهر ذلك اليوم رأيتها واقفة فلم تهرب كعادتها بل رفعت إلي بصرها، ثم دخلت حجرتها في هدوء ورزانة .

لا أكتمك يا أخى اني شعرت بميل نحو تلك الفتاة، كان أول أمره معتدلا عاديا . فقد أعجبنى منها رشاقة جسمها واتزان حركاتها، وتناسق أعضائها، وغضارة بشرتها، وجمال محياها، وكانت عينها الدجاء وان ترسلان من أشعتها حرارة الشباب فتهز قلبي وتفتح جوانب نفسي، حتى لقد صرت أجد في النظر اليها متعة وهناك أشبه بهناء النفس في حلم هادى جميل .

غير ان ما جذبني اليها حقا، هو تلك النظرات الحزينة الهادئة التي كانت تتخلل نظراتها اللامعة القوية، وتلك البسمة الخفيفة الفاترة التي كانت لا تلبث أن يطفئها وجوم غريب واطراق مؤثر .

وازداد مبلى اليها الى أن كنا صبيحة يوم فسمعت وأنا بين النوم واليقظة نحيبا متقطعا، ولست أدري لم انصرف ذهني اليها لأول وهلة؟ فقفزت الى النافذة فرأيتها ووجهها بين كفيها، باكية تن أنينا موجعا، وأنا أترك لك أن تقدر لنفسك مبلغ ما نالني من الحزن في تلك اللحظة الرهيبة، ولقد كدت أن أصبح بها أن كفكني دموعك يا فتاة، لولا أنها أفاقت سريعا من غشيتها ومسحت دموعها في هدوء ثم نظرت الى الشمس المشرقة نظرة حزينة، يهز قلبي كلما ذكرتها، ودخلت بعد ذلك الى مخدعها .

ومنذ ذلك اليوم عرفت طعم الألم حقا، وكانت تتمثل لي صورتها فيكتفني من الألم اللاذع ما يمزق شغاف قلبي ويحرك كامن وجدى، ولا سيما وقد تكررت ذلك منها كثيرا في الصباح أحيانا وفي المساء أحيانا أخرى .
وأخيرا... وأخيرا حم القضاء ووجدت نفسي أسير تلك

إلا الأعين البصيرة، أو التي لا تراها الأعين إلا مصادقة، على هذا المسرح الصاخب المضطرب، وفي هذه الزوايا المتوارية عن الأنظار يوجد من المأسى والالام ما يتفطر له القلب حقا... وقاطعته قائلا: هون عليك يا فيلسوفنا الصغير، وما لك ولهذا الانقباض وأنت في زهرة العمر؟
فنظر إلي نظرة لوم وقال:

— ما حيلتي وتلك جبليتي؟ يراني الناس ضاحكا فرحا فيظنون اني خلو من الهموم، وتالله ما ضحكى إلا خداع مني لنفسي ومغالبة لشعوري، هو كالزهر الصناعي يغالط به الطفل نفسه... ولكن... ولكن أراك على حق، فسأضحك وسألعب وسأنسى كل شيء... نعم سوف أضحك مع الضاحكين... وسوف لا أبكى بعد اليوم مع أحد أو على أحد...

وضاحكته أستطلع دخيلة نفسه وحقيقة أمره فاعتدل في جلسته وتوثب وتحفز واستجمع قوته ثم قال في قوة وعزم:
هو دور لعبه أمامي وبالي التي لم أره، ولكن ما أسخف لعبته هذه... ليكن ما يكون وليكن ما قدر وهو كائن.
قلت ما الامر؟ انك تحيرني .

فاستطرد في صوت أبج لم أسمعه منه قبل اليوم وقال:
« من فتيات أربع، جئن فسكن في المنزل المجاور لنا، وكان قبل مجيئهن تسكنه سيدة وابنها وهو قتي في نحو الخامسة والعشرين، ولقد تبينت بعد مجيئهن أنهم اخوته، وكان أول ما رأيتهن في ظهيرة يوم عند ما عدت الى المنزل، ففتحت النافذة كعادتي في كل يوم وإذا بي أراهن أمامي لا يكاد يفصلني عنهن إلا نحو سبعة أمتار، وما وقعت انظارهن علي حتى جرين مسرعات الى داخل الحجرة واقفلن الباب من ورائهن، إلا صفراهن وهى في العاشرة تقريبا فقد ظلت ترمقني بنظرات ساذجة بريئة، وكأنها وكانت تجيد لعبة اليويو، قد أرادت أن تريني مهارتها فأخذت تلعبها وتنظر إلي، فابتسمت فضحككت ودخلت الى اخواتها صائحة لاعبة .
ومضيت انا الى بعض المجلات فجملت ألقها ولكن نظري كان كثير الاتجاه دائما نحو هذا المنزل او نحو ذلك الباب، وأنت يا أخى تعرفنى أحب الاستطلاع ولا أكاد أستقر حتى تصل نفسي الى ما تريد، فجلست أختلس النظرات وأنظاها بالنظر الى الصحيفة التي في يدي، فرأيت كبرى البنات وهى في العشرين تقريبا قد وقفت الى الباب فرأيتها ذات حظ من الجمال غير قليل، غير انه جمال شاحب حزين، ومررت اختها الصغيرة أمامي وهى في نحو السادسة

الفئة الحزينة الباكية ، ولك أن تعجب منى ماشئت أنا الذى طالما
سخرت من الحب وهزأت بالعاشقين ، أنا الذى طالما وصفت لك
الحب بأنه حلم من أحلام الشباب الخادعة ، وسراب خلب يحسبه
الظلمآن ماء حتى اذا جاء لم يجد شيئا ، أو فورة دما واضطراب
مزاج لا أقل ولا أكثر ، ولكن الإنسان ضعيف لا يملك لنفسه
ضرا ولا نفعا .

ولماذا أحببتها ؟ أهو جمالها الساحر قد ملك على نفسى ، أم
هو حزنها العميق قد صادف عطفنا وحنانا فى قلبى ؟ ولكن مالى
أبحث عن سر حبها ، ومتى كان الحب أمرا يقبل التليل ويخضع
للتحليل ! مالى لأقول انى أحببتها لاننى أحببتها ، ولنضحك بعد منى
ماشتت ، ولكن لم تضحك ؟ أليس الحب تفاعلا نفسانيا أو مزيجا
روحانيا ، يأتى بكل سهولة وبغير أدنى ترتيب ؟

أحسنت باهتمامى بأمرها واشفاقا عليها ، فكانت تشكرنى بابتسامة
عذبة ، وصرت أرى فى عينيها ما يدل على الاعتراف بالجميل ،
ولكنى كنت لا أرى فى نظراتها ما يدل على أنها تبادلنى حبي وتطارحنى
هيامى ، انها كانت نظرات شكر وامتنان ، وثالله انها كانت تؤلمنى
أحيانا ، ولكنى كنت فى سكرة الحب أعلل النفس بالآمال وأترك
للغد القول الفصل والحكم الأخير . ولكن تصرمت أيام دون
أن أجرو على مخاطبتها ولو بالتحية .

وراقبتها مرة فرائيتها تأهب للخروج ، وثارت نفسى واعتراى
جنون الشباب ، وامتدت يدى الى ملابسى فلبستها دون أن أشعر
بشيء أو أدرى ماذا أفعل ، وسرت فى اثرها وان فؤادى ليخفق
وان نفسى كلها لتهتز ، الى أن رأيتها تجلس وحدها على حافة قناة
صغيرة كانت تقرب من المنزل ، وقد أطرقت قليلا ثم رفعت
رأسها فاذا هى ترانى أمامها فساورها مزيج من الدهشة والابتسام
والخوف والارتياح والغضب والرضى ، ولست أدرى أنى جاءتنى
تلك الشجاعة فى تلك اللحظة الدقيقة ؟ فقلت فى ثبات :

هل لى يا فتاة أن أسألك سؤالا صغيرا ؟

ف نظرت الى نظرة عميقة فيها كثير من المعانى ، ويح نفسى انى
لأراها الآن ، أرى تلك العينين الدعجاوين ، وتلك التقاطيع الحلوة
وذلك الفم الجميل وتينك اليدين الرشيقتين .

قلت وما سؤلك يا فتى ؟

قلت : هل لى أن اعرف سبب حزنك وبكاكك ؟
فسرت رعدة قوية فى أعضائها ، وتمشت صفرة فاقعة فى وجهها ،

وكأننى هزئت بذلك السؤال كل كيانها ، وتمتت بكلمات لم أسمعها
ثم قالت :

شكرا لك على اهتمامك بأمرى . لست أستطيع ان أجيبك
على ماسألت .

قلت ولكنى أريد أن أعرف .

فعمظت دهشتها وبدا على محياها ذهول وخوف ، ثم قالت فى
حدة مصطنعة :

وما شأنك أنت والسؤال عن هذا ؟

قلت انى ... انى ... أريد ... أرجو ...

فساورها الشك فى عقلى فلقد قرأت هذا الشك فى نظراتها ،
وحدجتى بنظرة طويلة وقد اغرورقت بالدمع مقلتها ، ثم أشاحت
بوجهها عنى فألحفت وتوسلت فقالت :

إليك عنى واتق الله فى فتاة ضعيفة بريئة .

قلت لا أستطيع البعد عنك .

ثم انهمرت دموعى فصدقت ، وقالت وهى تتنفض من شدة
الاضطراب :

حسبتك أحد أولئك الشبان الذين لا أخلاق لهم ، ولقد هممت
أن اصرفك فى قسوة .

ثم نظرت الى طويلا دون أن تتكلم ، فقلت فى صوت خافت
متقطع : ستكونين لى منذ الآن .

فتجهمت قليلا ثم ابتسمت ابتسامة فهمت من معانيها الندم
والحسرة والآلم ، وهزت رأسها كأنها تريد أن تقول لى انك
لاتدرى من الأمر شيئا ، ثم قالت :

دعنى بربك ، ولا تشغل نفسك منذ اليوم بأمرى فلن يجديك
ذلك نفعا ، وستبدى لك الايام صحة قولى ، وصدق نصحى .

وكأننى ارتاعت لوقع ذلك على قلبى فقالت وهى تبكى :

آه ليتنى أستطيع ! ليتنى أستطيع ! اتركنى اشكرك على ...

وغلبها الحزن والبكاء فأجهشت كما يجيش الطفل . فظفرت

اليها ولاطفتها ، ثم تناولت يدها فلم تمنع ، ولما أردت أن أجذبها

نحوى نهضت قائمة وسارت لاتلوى على شيء ولم تلتفت وراءها ،

وغابت عن بصرى فى منعطف ، فبقيت فى مكانى جامدا كالصخر

ثائرا مضطربا ، ثم مرت على دقائق افتقدت فيها نفسى وحسى .

ومرت أيام وأنا أنجب النظر اليها ما استطعت ، أيام كنت

اثناها كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، ولقد بلغ من نفسى أننى

وبدت منه حركة عصبية كانت ظاهرة في يديه وعينه وصوته
المبحوح وصدره المجروح ، قال :

في صبيحة اليوم التالى سمع سكان البيوت المجاورة صراخا
عاليا ففتحوا النوافذ فوجدوا الدخان يتصاعد من نافذة المطبخ
في ذلك المنزل ، أما أنا فكان في كنت أعلم بما سيجرى من قبل ،
فسكت ولكنه كان سكوت اليأس ، وتجلدت ولكنه كان تجلد
الاغماء . وهرع الناس فدخلوا المطبخ فاذا هي ممدودة على الأرض
لا تبدي حرا كا ، ولم يحترق منها الا شعرها ، وقرر الطبيب أن
الوفاة بالاختناق . وارحة لك يا ... حتى النار أكبرتك وأشفتك
من أن تلهب هذا الجسد الطاهر ، ولكنك جدت بغدادك الذهبية
التي طالما تطلعت اليها الآعين وخفقت لرؤيتها القلوب
وهنا لم يتمالك صاحبي نفسه فاجش كيا يجش الصبي وناولني
قصاصة من الورق فقرأت فيها ما يلي :

وصلتني كلمتك الرقيقة يا صاحبي فضمنتها الى صدرى وقبلت
الخطاب من أجلك ، وذرفت الدمع سخينا شفقة عليك . ساخني
واعف عني ، وسنتقابل في الحياة الأخرى حيث لا شقاء ولا
عذاب ، وأرجو أن تستغفر لى الله فى صلواتك ، الوداع .. الوداع
والشكر الجميل !

ولما تلوت تلك الورقة وجدته قد غلبه النوم وطول
الجهد فاخذت رجله برفق ومددتها على المقعد وعمدت الى
ملحفة فنشرتھا عليه ، وخرجت على أطراف أصابعي وتركته
لينام عله يجمد في النوم بعض الراحة ، وسألت الله أن يشفق
به فى أحلامه وأن يهبه العزاء والسلوان ؟

محمود الخفيف

هل تريد ؟

هل تريد الوقوف على اسرار النفس وملكات العقل ؟

هل تريد ايقاظ العبقريّة والنبوغ ؟

هل تريد أن تكون شخصية جذابة ؟

هل تريد أن تكون بارعا فى عملك موقفا فى حياتك ؟

هل تريد ممارسة فن التنويم المغناطيسى علما وعملا ؟

كل هذا نجده موضحا بأسلوب سلس واضح فى كتاب
ملكات العقل الباطن

يطلب من مؤلفه الاستاذ وليم سرجيوس الحامى بشارع التربة البولائية
رقم ١٥٦ بالقاهرة ومن المسكاتب الشهيرة وثمنه ٥ قروش

كنت أرى الأسرة كلها حزينة كأنما هم مقبلون على امر خطير .
ولما ضاقت بي الدنيا كتبت اليها اطلب عفوها وأبشأ لواعج نفسي .
وفى صبيحة يوم جلسن جميعا يكيّن حول أمن وأنا حائر مشدود
لا أدري من أمرهن شيئا ، فنادت البدال فأقبل وهو قتي طيب
القلب ، فقلت له : أندري يا فتى سر هذا الحزن ؟ وأشرت اليهن
دون أن يرينني

قال او ماتعن ؟

قلت كلا .

قال ان صاحب المنزل قد « أوقع الحجز » عليهن وأعقبه بائع
الحجز بحجز مثله وفاء لما عليهن من الدين وقد قرب يوم البيع .

قلت وقد دق قلبي دقا عنيفا - هل مات أبوهن ؟

قال خير لك الا تعرف عنه شيئا - ثم قال :

كان أبوهن تاجرا من كبار التجار ، وكان عظيم الثراء ولكنه
لم يرع النعمة وراح يقامر مرة ، ويسرف مرة ، ويتعاطى المخدرات
بكثرة مخيفة وهو الآن نزيل السجن من سنتين

وارتفع الدم بغزارة الى وجهي وأحسست بحرارة كحرارة
المحموم ، ومرت غشاوة فحجبت بصري ورأيت الجو بعد برهة
أصفر مكفها ثم قلت :

وأخوهن ؟

قال هو شاب عاطل لا يجد لنفسه عملا مع أنه يحمل شهادة
عالية . مناه أصدقاء والده كثيرا بوظيفة ولكن أين هي الوظائف
الآن ؟ وكثيرا ما نصحناه أن يلجأ الى اى عمل حر ، ولكن يظهر ان
الابواب سدت فى وجهه .

قلت أو لم يتقدم أحد لخطبة البنات من قبل ؟

— قال بلى . خطبت الكيترتان ولكن خطبيهما تركاهما بعد
ما جرى لآيهن ماجرى . ثم سكت البدال برهة وقال فى ألم : — مع
أن البنت الوسطى ولعلك تعرفها ذات الشعر الأصفر ، كانت تحب
خطبها لدرجة الجنون

— فصرفته ودخلت حجرتي كئيبا ملتاغا وذرفت الدمع
سخينا .

وسكت صاحبي برهة ثم قال فى نبرات حزينة : رأيت كيف
يقضى هؤلاء الاغفال على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ؟ ألا قاتل
الله الجمالة ! انها أصل الفواجع والآلام . ثم قال دونك فاسمع البقية ،